جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

الضبط الاجتماعي والجريمة

الدكتور حسن الساعاتي

الرياض

1411 هـ - 1991 م

الضبط الاجتماعي والجريمة(*)

الدكتور حسن الساعاتي

التمهيـــــد

يخلق البشر كائنات عضوية في بيئات اجتماعية متداخلة بعضها في بعض، تتدرج فيها معيشتهم من مجموعة العائلة الى جماعة الأسرة الكبيرة المتفرعة، أو جماعات الحلة في البادية أو القرية في الريف، أو الحي في المدينة، ومن مجموعة الأقران الى الجماعة التعليمية، ثم الى مجتمع البلد أو المدينة وأخيراً الى المجتمع الوطني الشامل، في محيط المجتمع القومي أو الاقليمي الأشمل، الذي تحتوي عليه وعلى غيره من المجتمعات، الجماعة الدولية الأكثر شمولا

ويمتاز الكائن البشري بما يكمن فيه من خاصية اجتماعية وهي القدرة على المعيشة مع غيره، والنقل عنهم والتعلم منهم في شتى المجموعات والجماعات، ثم في المجتمع الوطني الشامل، والمجتمع القومي أو الاقليمي الأشمل، والجماعة الدولية الأكثر شمولا كما يمتاز أيضاً بحاجته الى المعيشة الاجتماعية أي الوجود مع غيره من البشر والتعامل معهم، تعامل معاشرة وتعاون ونفع متبادل لكي يحصل على ضرورات الحياة من غذاء وكساء وخباء ونعم أخرى ترفع مستوى

(*) ألقيت هذه المحاضرة بمقر المركز بتاريخ ٦ ذي القعدة ١٤٠٥هـ الموافق ٢٣ يوليو ١٩٨٥م.

معيشته وتعمل على راحته، وحركة الحياة في مختلف التجمعات البشرية صغيرها ومتوسطها وكبيرها، ولا تسير على غير هدى، فهناك نظم اجتماعية متعددة تحكمها في أنساق اجتماعية دقيقة الترتيب، ويتكون من هذه النظم والأنساق الاجتماعية في مجموعها النظام العام لكل مجتمع، واختلاف أي مجتمع عن أي مجتمع آخر، إنما ينشأ عن اختلاف النظام العام في كل منهما عن الآخر، وبالتالي عن اختلاف النظم والأنساق الاجتماعية بعضها عن بعض، ويعد كل شريعة من الشرائع السماوية نظاماً عاماً للحياة يحتوي على النظم الاجتماعية التي تحدد معاملات الأفراد في علاقاتهم العائلية في الخطبة والزواج والمعاشرة الزوجية وتربية الأطفال والطلاق وما يترتب عليه من حقوق للزوجة والوفاة وما يترتب عليها من مواريث وفي علاقاتهم الاقتصادية في العمل والانتاج والتجارة والاقتراض والصدقات، وفي علاقاتهم العدوانية بغياً بينهم، وفي غير ذلك من العلاقات، ولكل من النظام العائلي والنظام الاقتصادي والنظام القضائي النسق الذي يميزه، كنسق القرابة ونسق العمالة ونسق العقاب.

ولا يمكن لخاصية الفرد الاجتماعية وقدرته على المعيشة مع غيره، والنقل عنهم والتعليم منهم أن تظهرا وتؤديا الأدوار التي جعلت لها الاَّ إذا وجد منذ ولادته مع أفراد آخرين يكفلونه ويقومون بتنشئته الاجتماعية التي يأخذ بها عنهم لغتهم وقيمهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومعتقداتهم ومعتنقاتهم، وكل ما يجعله يتصرف كواحد منهم لا يشذ عنهم في أي شيء يتعلق بأسلوب حياتهم، وتسهم في عملية التنشئة الاجتماعية هذه المجموعات الاجتماعية وعلى رأسها

العائلة، والجماعات الاجتماعية وأهمها المدرسة، والهيئات الاجتماعية وأخطرها في عصرنا الحاضر هيئات الاعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون، أما إذا لم تتح للفرد هذه الحياة الاجتماعية فإنه لا ينمو بشراً وإنما يصبح في عداد الحيوان الذي يخطفه ويبقي عليه ويربيه، كما يحدث في حالات متعددة، وكانت موضوعات لبحوث أصيلة عما أسموه الانسان الغزال، وربما كانت حالة «غلام أفيرون الهمجي» والتي أخرج حولها فيلم سينمائي أشهر هذه الحالات

التنشئة الاجتماعية

عرفنا إذن أن التنشئة الاجتماعية عملية تؤدي وظيفتها في حياة الفرد منذ مولده، وركيزة هذه العملية الأساسية فطرته التي فطره الله تعالى عليها، إذ جعل فيه دوافع فطرية عامة، أي يشترك فيها مع أبناء جنسه، وهي ما أطلق عليها في أول الأمر اسم الغرائز، وعن طريق فروع هذه العملية الاجتماعية النشيطة، من محاكاة للآخرين ونقل عنهم، ويعرف ذلك بالتعليم المصاحب أي عن طريق مصاحبتهم الى تعلم ارادي مقصود غير نظامي يتلقاه الفرد من الوالدين ومن يعاشرهم من الكبار الآخرين الى التعلم المدرسي بواسطة المعلم والكتاب، الى التعلم المبثوث عن طريق وسائل الاعلام، نجد أن هذا العلم كله تطويع لدوافع الانسان الفطرية للحياة الاجتماعية، أي لمعاشرة الناس في البيئة التي تحيط به، وتبطن لغتهم وأفكارهم، والتوافق معهم والتكيف مع أسلوبهم في الحياة بحيث يصبح واحداً منهم، مندمجاً فيهم يأتمر بما يأتمرون به، وينتهي

عمَّا ينتهون عنه، ما لم تكن هناك علل ذاتية وأسباب خارجية، تجعله في نواح من سلوكه يشذ عن المألوف وينحرف عن مسالكهم التي اعتادوا السير فيها لتحقيق أغراضهم

فعملية التنشئة الاجتماعية على هذه الصورة أفعال تعليمية بين من يعلمون، ومن لا يعلمون لتعليمهم وضبط دوافعهم الفطرية العامة ليكونوا متوافقين مع البيئة، التي فيها حركة حياتهم، وتعاملهم فيها مع غيرهم، ووفق ما جاء في كتاب الله تعالى لم يخلق آدم في بيئة اجتماعية أي لم يولد في حجر أفراد يقومون بتنشئته فعلمه سبحانه وتعالى الأسماء كلها أي كما قال ابن عباس «علَّمه أسماء كل شيء»، بمعنى، كما قال القرطبي «علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا»[1]، وهذا إعداد تعليمي من الله تعالى لأبي البشر، حتى إذا ما هبط هو وزوجته الى الأرض كانا معدين للحياة الاجتماعية فيها، يعلمان غيرهما ويقومان بتنشئتهم للحياة الاجتماعية وحركاها وما يجري فيها من معاملات وفق قواعد معينة أساسها أوامر ونواه محددة هي صلب الشرائع السماوية التي أراد الله تعالى بها، حفظ الحياة الاجتماعية وصيانتها واستقرارها، هذه الأوامر والنواهي الشرعية وما يضيف اليها الناس مع نمو التجمعات البشرية وما ينجم عن ذلك من تغيرات اقتصادية وسياسية وتعاملية، تكون عناصر الضوابط التي يتوقف عليها صلاح المجتمعات وفسادها، فالضبط الاجتماعي أي ضبط سلوك الأفراد في حياتهم بعضهم مع

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء الأول ص ٢٨٢

بعض، في مختلف التجمعات البشرية، من المجموعات الى الجماعات الى المجتمع بأسره ظاهرة من ظواهر المعاشرة بين الناس في كل اجتماع انساني وعمران بشري

الضبط الاجتماعي ووسائله

يقوم بالضبط الاجتماعي في المجتمع الوالدان وغيرهما ممن تكون لهم سلطة التعليم والتوجيه والتنشئة بوجه عام، إما وظيفة كما في حالة المعلمين، وإما التزاماً عمرياً من قبل الكبار نحو الصغار في التجمعات التي تحتم فيها علاقات المواجهة رعاية الكبير للصغير حتى ولو كان غير قريب، ودور الوالدين كقوامين بالضبط الاحتماعي في عملية التنشئة الاجتماعية ورئيسي وأساسي وبخاصة أنه أول فعل يمارس على الأطفال فيضعهم في أول الطريق في مسيرة حياتهم، وفي ذلك يصدق قول الرسول الكريم (ﷺ) «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، ويكون الضبط بالثواب على فعل الخير والعقاب على فعل الشر، أي بالجزاء على الفعل، والحب هو وسيلة الوالدين وبخاصة الأم في تعويد الطفل على أخلاقهما وتنشئته على هواهما، في اطار القيم والأعراف والتقاليد السائدة والتي يعترفان بها، فإذا استجاب الطفل، قالا له استحساناً انهما يحبانه ويتقبلانه ويعبران عن ذلك عملياً بمكافأته، وإن لم يستجب استهجنا مسلكه وقالا انهما لا يحبانه وآلماه، فضلا عن ذلك باظهار عدم الاكتراث به وتجنب الحديث اليه أي نبذه، وفي اطار من المنح والمنع والتقبل والنبذ يشعر الطفل بالأمان والاطمئنان أو الحرمان

والقلق، فيجتهد في طاعة الوالدين ويحاول قدر استطاعته تجنب ما يبغضهما، ويضيف الوالدان الى ذلك وسيلة ثانية قوية الأثر، وهي لفت نظره باستمرار الى ضرورة العمل على كسب تقدير الآخرين، الذين يهمه أن يجذب انتباههم ويكون موضع احترامهم عند تعاملهم معه، وذلك بحس مظهره وأدبه وكرم أخلاقه والاَّ فقد ثقتهم وسقط من نظرهم ولاكته ألسنتهم بما يكره، وسخروا منه واستهانوا به وحقروه، وربما قاطعوه وامعنوا في إيلامه لأنه ارتكب أفعالا خارجة عما اعتادوه وألفوه وتعارفوا عليه، وارتضوه فصار سلوكه مستهجناً لديهم ومرفوضاً منهم، والوالدان منذ أن يبدأ وعي الطفل بمن حوله يكسبانه بهذ الوسيلة التربوية، حساسية اجتماعية برأي الغير من كثرة ما يرددونه على مسامعه من عبارات مثل «ماذا يقول الناس عنك، أين تذهب من كلام الناس، ستكون أضحوكة الناس» وهكذا يصبح رأي الناس في الفرد ذا أهمية كبرى، ويكون عامل ضبط اجتماعي لسلوك الأفراد في مختلف التجمعات الاجتماعية، وهذه الحاسية الاجتماعية تنمي في الفرد انفعال الحياء، الذي يكفه عن فعل ما يشين

هاتان الوسيلتان للضبط الاجتماعي عاطفة الآباء وانفعالات الآخرين نابعتان من علاقات الأفراد بآبائهم في مجموعات عائلاتهم، وعلاقاتهم بالآخرين في عصبة الأقران وثلة الأصدقاء وفي جماعات الجيران والحي والقرية، وأيضاً في جماعة المدرسة، وفي أي من هذه المجموعات والجماعات يقع الضبط على الأفراد من آبائهم وأفراد آخرين غير معروفين بينهم ومرتبطين بهم بروابط الأبوة والبنوة ورابطة

الألفة، ورابطة الصداقة ورابطة الجوار، ورابطة التعليم، وهناك وسيلة ثالثة للضبط الاجتماعي بالغة الأهمية يغرسها الآباء والمشتركون معهم في عملية التنشئة الاجتماعية في أذهان الصغار، منذ أن يتبلور ادراكهم بأن لهم ولكل شيء يحيط به ادراكهم خالقاً هو الله تعالى، يراهم ولا يرونه، ويعلم سرهم ونجواهم، في كل حركة من حركات الحياة وذلك عن طريق حدود تفصل بين ما عليهم أن يفعلوا وفق أوامر معينة، وما عليهم أن يكفوا عن فعله ويتجنبوه وفق نواه مبينة، وإنه هو الذي يعلم فعل البشر سواء منهم من التزم بحدوده وكان فعله خيراً له وخيراً للآخرين، أو من تعداها فكان فعله شراً له وشراً للآخرين، فيرضى عن الأخيار ويجزيهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة، ويسخط على الأشرار ويجزيهم شر الجزاء في الدنيا والآخرة

أما الوسيلة الرابعة فذات شبه ضعيف باهت بالوسيلة الثالثة من حيث كونها نابعة من ادراك الأفراد منذ أن ينضج ادراكهم في صغرهم بأن هناك مكوناً معنوياً على هيئة الدولة الممثلة فيما يعرف بالحكومة وأن هذه الدولة تضع لتنظيم حركات الحياة في المجتمع دستوراً وقوانين تسهر على تنفيذها، وتكون يقظة بواسطة شرطتها لالقاء القبض على من يخرج عليها ويظهر فعله علانية ويعرفه الناس، فتنزل به العقوبة المحددة في قانون الجنايات الذي وضعته، وما دام الأفراد لا يخرجون في تعاملهم على ما تضعه الدولة من دستور وقوانين وما دام من يخرجون عليها قد ارتكبوا جرائمهم في ستر من الناس، ولم يكشفهم أحد فإن الدولة تكون بعيدة عنهم ولا تدخلهم في بؤرة

اهتماماتها، كما أنهم يكونون بمنأى عنها وعن اجراءاتها التي لا تعرف الاَّ بالخبرة الواقعية، وهذا يفسر قول من يرون أن القانون تجربة نفسية لا يشعر بها ويحس بأبعادها الاَّ من يقع تحت طائلته فيطبق عليه.

وإن من يتدبر وسائل الضبط الاجتماعي الأربع التي بيَّناها آنفاً ليجد أن أشدها فاعلية وأبعدها أثراً وأدقها نفاذاً الدين، أي النظام الآلهي وشريعته التي شرعها الله تعالى لعباده لتصلح معاملاتهم فلا يتطرق الفساد الى مجتمعاتهم، «والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1]، وعندما سئل عن الاحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]ولا مراء في أن تقوى الله تعالى على هذه الصورة كافية لكف الناس عن فعل المحرمات وفي مقدمتها ما ذكر بالتحديد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الاَّ بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم الاَّ بالتي هي أحسن حتي يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً الاَّ وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق

---

١ ـ عن عبدالله بن عمرو. كتاب الايمان. صحيح أبي عبدالله البخاري الجزء الأول. ص. ٦.

٢ ـ عن أبي هريرة. المصدر السابق. ص. ١٢

بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1]، إن تقوى الله تعالى هي التي كفت على سبيل المثال المرأة التي أقدمت على غش اللبن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما علقت ابنتها على ردها «إن الخليفة لا يراني» بقولها «ولكن الله يراك» والتي كفت ولا تزال تكف الكثيرين عن فعل ما حرم الله والتحلل من مراقبة الله تعالى، وقلة الحياء منه أو عدمه نوع من عدم الايمان

وهذا يفسر قول الرسول (ﷺ): «لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن»[2]، وهذا هو السر في فرض الصلاة خمس مرات في اليوم لأنها كما قال تعالى. ﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[3]، وذلك لأن العبد عند أدائها يقف بين يدي الله سبحانه وهذا خير ما يحث على مراقبته ومن هنا كان الاهتمام كل الاهتمام بحث الناس على الصلاة، بل دفعهم اليها دفعاً، وضرب الصغار على تركها من أهم الاجراءات الواقية من الجريمة. وليس أدل على ذلك من انخفاض نسبة الاجرام في البلاد الاسلامية، وفي مقدمتها بشوط بعيد المملكة العربية السعودية، عنها في الدول غير الاسلامية، التي ترك بعضها الحرية لشعوبها أن تفعل الفحشاء بالتراضي فعاقبهم

---

١ ـ سورة الأنعام الآيات. ١٥١ ـ ١٥٣

٢ ـ عن ابن عباس. كتاب الحدود. صحيح ابي عبدالله البخاري الجزء الرابع ص: ١٠٨

٣ ـ سورة العنكبوت. الآية ٤٥

الله بمرض يقضي على جهاز المناعة في أجسادهم ويؤدي الى وفاتهم فأصبحوا يعيشون في قلق وتوتر

أما الضبط الاجتماعي بالوسائل الثلاث الأخرى فقوي ما دام الأفراد يتعاملون بعضهم مع بعض في العلن وفي مراقبة من بعضهم لبعض، وذلك لأن هذه الوسائل تعتمد أساساً على وجود الناس، وخشيتهم ما داموا موجودين ومطلعين بعضهم على أفعال بعض، فالوالدان والناس الآخرون ورجال الشرطة يقون المجتمع من الجريمة بوجودهم ويقظتهم ووعيهم بواجباتهم، ويستقرأ من ذلك أنهم إذا لم يكونوا موجودين أو إذا كان الناس في ستر منهم، فإنهم يستطيعون فعل ما يشتهون من المنكر، وذلك يدل على عدم تكون الضمير الرادع فيهم، أو على شدة ضعفه أما الدين فيمتاز بأنه وسيلة للضبط الاجتماعي في السر والعلن، وينذر به ﴿من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾[1]، هذه الخشية الايمانية تثمر الحياء من الله تعالى وتنمي في الانسان ضميراً يردعه الاَّ إذا أماته بنسيانه سبحانه والغفلة عما أنزله في كتابه الكريم من الحكمة وعن هدي رسوله الكريم في سنته، وبتعطيل عقله بالمسكرات والمخدرات، وعندئذ لا تقدر نفسه اللوامة على كبح جماح نفسه الأمارة، ويسهل وقوعه في الإثم وارتكاب الجريمة

وهناك عوامل مساعدة للضبط الاجتماعي ذات آثار فعَّالة على الفرد وسط ظروف اجتماعية معينة، هذه العوامل تنبع من الناس

---

١ - سورة يس الآية ١١

المحيطين به، وتسلط على سلوكه فتضطره الى أن يظهر بالمظهر الذي يتوقعونه، ويسلك في معاملاته السلوك الذي ينتظرونه منه، فنوع الانسان وسنه وأصله ومستوى تعلمه ودرجته الاجتماعية أي طبقته وعمله، ومركزه، وانتماءاته كل ذلك عوامل مساعدة قوية الفاعلية في عملية التنشئة الاجتماعية وضبط السلوك بمقادير معينة، وفي المراحل المتدرجة في حياته منذ أن يبدأ وعيه ويقوي ثم يتكامل أي على درجات يلي بعضها بعضاً، ويتعهد القيام بعملية الضبط في هذه الأحوال الوالدان أولا في عملية التنشئة الاجتماعية ثم الناس المحيطون بالفرد الذين يتعاملون معه في حركات حياته وفي كل موقع من مواقعها، وكل ظرف من ظروفها.

الذات الانسانية وحاجاتها الى الضبط

للذات الانسانية في الاسلام سمات واضحة المعالم، لابد من أن يكون كل مسلم على وعي كاف بها ليدرك ما فيه من طاقات وامكانات واستعدادات وما تحتوي عليه ذاته من مواطن ضعف ومراكز قوة ويفهم وضعه في الحياة الدنيا التي أهل للعيش فيها فترة من الزمن غير معلومة له، وفي ضوء قوله تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1] يجب علينا استجلاء ما في الانسان من آيات خلق الله ومن نسق نفسي متكامل ومتفاعل بعضه مع بعض في محيط عضوي دقيق البناء بديع التكوين دقيق التنظيم ويمتاز الانسان بأنه ميسر

---

١ ـ سورة الذاريات الآية ٢١

للسمو عن طريق فعل الخير ونهي النفس عن الهوى ومؤهل للدناءة فجوراً وظلماً وطغياناً حينما يمرض قلبه فيجعل إلهه هواه، ويستخدم حواسه لدرك ما يحرك الوجدان ويهيج الشهوة ويحفز الهمة، ويدفع الى النزوع الى ارتكاب الجريمة، ويمتاز الانسان أيضاً بأن ذاته تنقسم الى ثلاث نفوس نفس امارة تنبثق عن حب الشهوات المزيفة للناس ﴿من الناس والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[1] لمن جعلوها شغلهم الشاغل وغفلوا عن الآخرة وما أعده الله تعالى فيها من نعيم لا يزول ولا يفنى، ولم يفكروا في حقيقة أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، وهكذا ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[2]، والنفس الثانية تنبثق عن عقل واع مدرك ومميز، ومؤهلة لهدي الله تعالى بالعلم والمعرفة، من قرآنه لاستقبال الالهام الالهي ينير به طريق العاملين المجدين، هذه هي النفس التي توقظ الضمير الالهي في الذات الانسانية، وتنبه الى ما تشتهيه النفس الأمارة، ليقنعها بشتى الوسائل لترتدع وتنتهي وتكف عن فعل المنكر خوفاً من الله، ومحافظة على مصالح العباد، وصلاح المجتمع فإذا نجحت النفس اللوامة في مسعاها وحققت ما ترجوه من نتيجة انبثقت من هذه العملية التصارعية بينها وبين النفس الأمارة نفس ثالثة مطمئنة تنعم بها الذات الانسانية فيهدأ بالها وتستقر وترتاح ولكن النفس اللوامة كثيراً ما تخفق في مسعاها فلا يكون لديها غير

---

١ ـ سورة آل عمران الآية ١٤

٢ ـ سورة الحشر الآية: ٩

اللوم المؤلم تؤنب به الذات وتثير فيها الندم وتدفعها الى التوبة والتفكير عما جنت والعزم على عدم العودة الى ارتكاب الإثم.

والواقع أن الذات الانسانية محتاجة الى الضبط الاجتماعي بكل وسائله سواء أكان من قبل الأفراد أم من سلطة الدولة أم من هدي السماء، لمساندتها ودعم موقفها أمام الضغوط الكثيرة، التي تقع عليها في مسيرتها في الحياة من نزغ الشيطان المضلّ المبين، ومن وسوسة العصاة المفسدين، ومن التقاليد الضارة المتوارثة عن الأسلاف المتخلفين، ومن الشهوات التي تخلب الألباب فضلا عن النفس الأمارة التي بين جنبي الانسان، والتي تلح عليه وتلهيه عن الاستماع الى صوت الضمير، وتطفىء ما في قلبه من نور الهداية ويقين الايمان، فيمرض قلبه ويختل توازنه الفكري، ويسهل ترديه في حمأة الرذيلة، وبخاصة أن الانسان في حقيقة أصله وتكوينه خلق ضعيفاً هلوعاً، وعجولا كفوراً، ويئوساً جزوعاً، وقتوراً منوعاً، وهو الى جانب ذلك خلق في كبد يكدح الى ربه كدحاً بينما قبله مفعم بالغل ممتلىء بالحسد كما أنه لمن يريد هدايته خصيم مبين ومكابر عنيد ومجادل فاجر.

وضبط التغير الاجتماعي وما يجد في المجتمع على مر الأيام وتعاقب الأزمان من بدع منكرة يألفها كثير من الناس شيئاً فشيئاً يجعل الضعف الخلقي يدب في أوصال البناء الاجتماعي، فيستهزىء المبتدعون بالشريعة والقانون في سرهم ونجواهم، بينما يتظاهرون بطاعتها في العلن، وهذا هو النفاق بعينه، الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون

بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾[1]، وقد بيَّن الرسول الأمين الآثار السيئة للتغير الاجتماعي وما يترتب عليها من ضعف خلقي في تفسير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾[2]، فقال «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودينا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» فقال الحاضرون: «أجر خمسين منا أو منهم؟» فرد عليهم قائلا: «بل أجر خمسين منكم»[3]، وقد ورد عن الامام مالك بن أنس أنه قال عن زمانه: «ما في زماننا شيء أقل من الانصاف» فقال القرطبي معلقاً على ذلك «هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمَّ فيه الفساد وكثر فيه الطعام وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور في الدنيا، وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يسقى القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى»[4]، ولقد بيَّن عبدالرحمن بن خلدون في مقدمته أن الشر أقرب الخلال الى البشر،

---

١ - سورة التوبة الآية: ٦٧

٢ - سورة المائدة الآية: ١٠٥

٣ - عن أبي ثعلبة الخشني أبو عبدالله محمد الأنصاري القرطبي الجامع لأحكام القرآن الجزء السادس. ص: ٣٤٣

٤ - القرطبي المصدر نفسه. الجزء الأول. ص: ٢٨٦

إذا أهملوا في مرعى عوائدهم ولم يهذبهم الاهتداء بشريعة الله، وهذا مسلك عدد كبير منهم في طبيعتهم الظلم والعدوان، بعضهم على بعض، ولا يمنع هذا العدوان ويكف الناس عنه الاَّ «الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبوحون بحكم القهر والسلطان عن التظالم»[1].

الضبط الاجتماعي والجريمة

مما تقدم يتضح أن الضبط الاجتماعي في أشكاله المختلفة ووسائله المتعددة ظاهرة اجتماعية بمعنى أنه لابد للناس من وجودها في كل تجمعاتهم الاجتماعية القصيرة المدى، وكذلك في تجمعاتهم العمرانية الطويلة المدى والمستديمة ذلك لأن أي تجمع بشري لابدَّ أن يخضع لنوع من النظام ينظم علاقات الأفراد ويمنع من عدوان بعضهم على بعض، بارتكاب أفعال تؤثمها الشريعة السماوية ويجرمها القانون الوضعي حتى ولو كان هذا العدوان نوعاً من ظلم الانسان نفسه والاساءة اليها واتلافها

ولكي ندرك أهمية الضبط الاجتماعي وأثره في كف الناس عن الجريمة وردع من تسول له نفسه الخروج على الشريعة والقانون المتكامل معها، يمكننا مقارنة أحوال الدول التي بعدت عن الدين في تنظيم شئونها الحياتية، وجعلت عملية الضبط الاجتماعي في أضيق الحدود بدعوى احترام حرية الأفراد، بأحوال الدول المتمسكة بدينها في

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون ص. ١٢٧

تنظيم حياة شعوبها سواء في تنشئة أطفالها أو في صياغة قوانينها، تلك الدول التي اهتمت بعملية الضبط الاجتماعي فدعمتها في يقظة وبدون هوادة، مقارنة مبيَّنة على الملاحظة العلمية من جهة، والاستقصاء الاحصائي الجنائي من جهة أخرى، وهذا هو صميم عمل مراكز البحوث الجنائية التي انتهت من بحوثها العلمية المتنوعة في ميدان الجريمة الاَّ أنه كلما كان الضبط الاجتماعي قوياً صلحت أحوال الناس وقلت الجرائم وانحصرت في أضيق الحدود.